

من عجيب هداية الله - عز وجل –

للحيوانات والحشرات

**مقدمة**

الحمد لله ذي الإفضال والإنعام، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم من الأئمة الأعلام، أما بعد:

فإن كتاب: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم - رحمه الله، فيه جملة من القواعد النافعة، والفوائد الماتعة[[1]](#footnote-1)، ويعد هذا الكتاب، كأي كتاب آخر لابن القيم، ناضحًا بالفوائد والفرائد، والأصول والقواعد؛ ولذلك رأينا أن نقف هنا حول شيء مما تحدث عنه ابن القيم - رحمه الله - في كتابه هذا - شفاء العليل[[2]](#footnote-2) - وهو يذكر الهداية[[3]](#footnote-3) وأقسامها وأنواعها، بتقاسيم بديعة، وتفاصيل نفيسة لا مثال ولا مثيل لها - استطرادًا[[4]](#footnote-4) كعادته - وهو ما يتعلق بأمر هداية الحيوانات والحشرات والطيور، وقد ذكره في نحو تسع عشرة صحيفة، فأحسن فيه أيما إحسان، وأبدع أيما إبداع.

ولما كان لهذا الأمر أهمية بالغة، ولا سيما فيما يتعلق بالإيمان وزيادته، وتوطيد توحيد الربوبية وتقويته من جهة[[5]](#footnote-5)، ولأنه لا يتسنى لكل أحد الوقوف عليه من جهة أخرى؛ ذلك أن الكتاب كما هو معلوم يتعلق بأمر القضاء والقدر، وما يتبعها من مسائل الحكم والتعليلات[[6]](#footnote-6) - لما كان هذا، رأيت أن أفرد هذا المبحث هنا في هذه الرسالة، وأسميتها: من عجيب هداية الله (عز وجل) للحيوانات والحشرات.

فاستعنت بالله - عز وجل، فكان ذلك بتصرف واختصار، وتقديم وتأخير، وترتيب وتنويع، وزيادة لا تخل - أبدًا - بالكلام؛ حتى يسهل مطالعته والاستفادة والإفادة منه.

**التمهيد**

قال الله - تعالى -: {أَمْ[[7]](#footnote-7) تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: 44][[8]](#footnote-8).

فانظر كيف [شبه أكثر الناس بالأنعام؟! والجامع بين النوعين: التساوي في عدم قبول الهدى، والانقياد له، وجعل الأكثرين {أَضَلُّ سَبِيلًا} من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالًا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل، فلا يستجيبون ولا يهتدون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتتجنبه، وما ينفعها فتؤثِره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم[[9]](#footnote-9)؛ فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه، أضل وأسوأ حالًا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه][[10]](#footnote-10).

وشاهدنا منها: أنه [لم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلًا منهم][[11]](#footnote-11).

إذًا[[12]](#footnote-12)، فلا شك - والأمر كذلك - أن هداية بعض الحيوان فوق هداية أكثر الناس[[13]](#footnote-13)؛ ولذلك يقول أبو جعفر الباقر[[14]](#footnote-14): "والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلًا منها".

وسوف نذكر جملة من صور ووجوه الشبه بينها وبين بعض بني آدم، ثم نأتي على ذكر هدايتها.

أولًا: صور من وجوه الشبه:

وسوف نشرع في ذكر شيء من وجوه الشبه بينها وبين غيرها، ومن ذلك:

أن الله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالًا، وبعضها متوكلًا غير محتال، وجعل بعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه، وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها[[15]](#footnote-15)، وبعضها يتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئًا، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحدًا يدنو منه، وبعضها يحب السفاد ويكثر منه، وبعضها لا يفعله في السنة إلا مرة، وبعضها يقتصر على أنثاه، وبعضها لا يقف على أنثى ولو كانت أمه أو أخته، وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا ترد يد لامس، وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم، وينفِر غاية النفار، وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا تنسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها ألبتة، وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك ألبتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

ثانيًا: صور من هداية الحيوانات والحشرات:

أقول[[16]](#footnote-16): وسوف نقف هنا مع جملة من هداية الحيوانات والحشرات، التي تؤكد على أمور[[17]](#footnote-17)، لعل من أعظمها أمرين اثنين:

الأول: الإيضاح والتأكيد على عظيم خلق الله - عز وجل - وصنعه، وبديع أمر هدايته لهذه الحيوانات والحشرات.

الثاني: التأكيد على أن هداية الكثير من هذه الحيوانات والحشرات يفوق هداية بعض الناس.

هداية النحل[[18]](#footnote-18):

وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب؛ وذلك أن لها أميرًا ومدبرًا، وهو: اليعسوب، وهو أكبر جسمًا من جميع النحل، وأحسن لونًا وشكلًا، وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكن إناثًا، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك؛ وذلك أن الذكور[[19]](#footnote-19) منها لا تعمل شيئًا ولا تكسب، ثم تجتمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلى المرعى من المروج والرياض والبساتين والمراتع في أقصر الطرق وأقربها، فتجتني[[20]](#footnote-20) منها كفايتها، فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا، وقف على بابها ولم يدع ذكرًا ولا نحلة غريبة تدخلها، فإذا تكامل دخولها دخل بعدها، وقد أخذت النحل مقاعدها وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إياه، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه، ويترك الملك العمل، ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار، ثم تقتسم النحل فرقًا، فمنها:

فرقه تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة.

ومنها: فرقة تهيئ الشمع وتصنعه، والشمع هو: ثفل[[21]](#footnote-21) العسل، وفيه: حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها.

وفرقة تبني البيوت.

وفرقة تسقي الماء وتحمله على متونها.

وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها؛ حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتُعْديهن ببطالتها ومهانتها.

وأول ما تبني في الخلية مقعد الملك وبيته، فتبني له بيتًا مربعًا يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه: الأمراء، والخدم، والخواص، لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئًا يشبه الحوض، يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض، يكون ذلك طعامًا للملك وخواصه، ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس[[22]](#footnote-22) حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ لأن المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلًا مستديرًا كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضًا؛ حتى يصير طبقًا واحدًا محكمًا لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر، فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم، الذي يعجز البشر عن صنع مثله.

فقد علمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما: ألا تكون زواياها ضيقة، حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلًا.

والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض وامتلأت العرصة منها، فلا يبقى منها شيء ضائعًا، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين: هو المسدس فقط؛ فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى بينها فروج خالية ضائعة.

وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فهداها سبحانه إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة، ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها، وتأتيها ذللًا لا تستعصي عليها، ولا تضل عنها.

وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها: {شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 69].

فإذا فرغت من بناء البيوت، خرجت خماصًا تسيح سهلًا وجبلًا، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار، وورق الأشجار، فترجع بطانًا، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة، تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجًا، ثم تمجه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتًا، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهوى وأخلف المرعى، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها، واغتذت بما ادخرت من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة، وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها.

وإذا كان وقت رجوعها وقف على باب الخلية بواب منها ومعه أعوان، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب، ويتفقدها، فإن وجد منها رائحة منكرة، أو رأى بها لطخة من قذر، منعها من الدخول، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول، فيتفقدهن ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قدَّه نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية، هذا دأب البواب كل عشية.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا، إذا اشتهى التنزه فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار، ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره: أنه ربما لحقه أذى من النحل، أو من صاحب الخلية، أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية، ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية، فإذا رأى صاحبها ذلك وخاف أن يأخذ النحل ويذهب بها إلى مكان آخر، احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه النحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه؛ فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقودًا، وهو إذا خرج غضبًا جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل وانضمت إليه حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحًا أو قصبة طويلة ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب، فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه، طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها: أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة، ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع، وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتلها خارج الخلية؛ صيانة للخلية عن جيفته، ومنها صنف قليل النفع، كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاورتها وألجأتها إلى أبواب البيوت، فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كل طويل العمر، فإذا انقضت الحرب، وبرد القتال عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلا في الأحايين، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشبان، وإذا عزم على الخروج، ظل قبل ذلك اليوم أو يومين يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها، فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عرف أنهن يتطلبن الملك، فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملك منها ملكًا آخر؛ لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها، وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية، وخاف من تفرق النحل بسببهم، احتال عليهم، وأخذ الملوك كلها إلا واحدًا، ويحبس الباقي عنده في إناء، ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم؛ حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث مرض أو موت أو كان مفسدًا فقتلته النحل، أخذ من هؤلاء المحبوسين واحدًا وجعله مكانه؛ لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها: أن الملك إذا خرج متنزهًا ومعه الأمراء والجنود، ربما لحقه إعياء، فتحمله الفراخ، وفي النحل: كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة؛ فالكرام دائمًا تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها؛ خشية أن تعدي كرامها وتفسدها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه؛ ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهادًا من الكبار، وأقل لسعًا، وأجود عسلًا، ولسعها إذا لسعت أقل ضررًا من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه، وقد خُصَّت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها: مادة الشفاء من الأسقام، والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام - كان أكثر الحيوان أعداء[[23]](#footnote-23)، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه، وهو العزيز الحكيم.

النمل[[24]](#footnote-24):

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء[[25]](#footnote-25)؛ فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقلتين؛ لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: 18].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه مَن خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنوا من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول: وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده: بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: {وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} [النمل: 17]، ثم قال: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ} [النمل: 18]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي كان معروفًا بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها؛ حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: {لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ} [النمل: 18]، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: 18]، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل؛ حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم؛ ولذلك تبسم نبي الله ضاحكًا من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم[[26]](#footnote-26).

وقد روى الزهري، عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة[[27]](#footnote-27)، عن ابن عباس - رضي الله عنمها - قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (نهى عن قتل أربع من الدواب: النمل، والنحلة، والهدهد، والصرد[[28]](#footnote-28))[[29]](#footnote-29).

وفي الصحيح[[30]](#footnote-30) عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ((نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة!)).

وذكر هشام بن حسان[[31]](#footnote-31): "أن أهل الأحنف بن قيس لقُوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين[[32]](#footnote-32)، فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهُنَّ أو ليحرقن[[33]](#footnote-33) عليكن، ونفعلونفعل[[34]](#footnote-34)، قال: فذهبن".

وروى [سهل بن يوسف]، عن عوف بن أبي جميلة، عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه -: "لكل شيء سادة، حتى للنمل سادة"[[35]](#footnote-35).

ومن عجيب هدايتها: أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه[[36]](#footnote-36)، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - يرفعه: قال: ((خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلى السماء تدعو، مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم، أو سُقيتم بغيركم))[[37]](#footnote-37)، ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره[[38]](#footnote-38).

وقال الإمام أحمد[[39]](#footnote-39): حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن زيد العمي، عن أبي الصديق الناجي قال: "خرج سليمان بن داود يستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خَلْق من خلقك، ليس بنا غِنًى عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا؛ فقد سقيتم بدعوة غيركم".

ولقد حدثني[[40]](#footnote-40): أن نملة خرجت من بيتها فصادفت شِقَّ جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تُطِق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه، فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله، فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مرارًا، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا[[41]](#footnote-41) - وقد حكيت له هذه الحكاية -: "هذه النمل فطَرها اللهُ سبحانه على قُبحِ الكذب، وعقوبة الكذاب".

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان - صلوات الله وسلامه عليه - لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء، استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعدما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات، فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولًا بمصالح أبناء جنسك، حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرتُ على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاءً لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها: أنها تكد طوال الصيف وتجمع للشتاء، علمًا منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى؛ فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها: أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابسًا، فأدنيته إلى أنفك لم تشَمَّ له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه؟ فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضًا؛ حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشَمُّها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرًا تركتها فلها أولاً صدق الشم، وبُعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعافُ أضعافِ وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدًا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه، فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غيرَ مختلسة من الحَبِّ شيئًا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها: أن الرجل إذا أراد أن يحترز من الذرِّ لا يسقط في عسل أو نحوه؛ فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناءً كبيرًا ويملؤه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل، فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له، وهو أبعد مكان من المحيط.

الهدهد[[42]](#footnote-42):

وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض لا يراه غيره.

ومن هدايته: ما حكاه الله عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان - عليه السلام - وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن يبدره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابًا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: {أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ} [النمل: 22]، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة، بحيث أحطت به وهو خبر عظيم له شأن؛ فلذلك قال: {وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} [النمل: 22]، والنبأ: هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ، استفرغت قلب المخبر لتلقِّي الخبر وقبوله، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد، فقال: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ} [النمل: 23]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلِّ الملوك؛ بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [النمل: 24]، وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها؛ إيذانًا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم، حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصدَّ حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه: إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعارٌ بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف[[43]](#footnote-43): "وفي إخراج الخبء: أمارة على أنه من كلام الهدهد؛ لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض - جلَّت قدرته، ولطف علمه، ولا يكاد تخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في رُوائِه ومنطقه وشمائله [ولهذا ورد]: فما عمل آدمي عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله".

الحمام[[44]](#footnote-44):

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية؛ حتى قال الشافعي: "أعقل الطير: الحمام"[[45]](#footnote-45).

ومنه بُرُد الحمام: وهي التي تحمل الرسائل والكتب، وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد؛ فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ[[46]](#footnote-46) فما دونها، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول، والقيِّمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناءً عظيمًا، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت الفساد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها، لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكرًا من عرض الحمام فتعتريها الهجنة، والقيِّمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها، والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء، بحيث إذا رأوا حمامًا ساقطًا لم يخفَ عليهم حسبها ونسبها وبلدها، ويعظمون صاحب التجرِبة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له، ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون: هو أحنُّ إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشد منها، وأقوى بدنًا، وأحسن اهتداءً.

وطائفة منهم يختار لذلك الإناث، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حن إلى الإناث، وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها، فترك المسير، ومال إلى قضاء وطره منها، وهدايته على قدر التعليم والتوطين.

والحمام موصوف باليُمن والإلف والتأنُّس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان، ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات بعيدة، وربما صدَّ فتَرَك وطنه عشر حِجَجٍ، وهو ثابت على الوفاء، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف، فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء جناحه، ثم يدنو من الأنثى، فيهدر لها ويقبلها ويزقها وينتفش ويرفع صدره، ثم يعتريه ضرب من الوله، والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض، فإذا قضى حاجته منها ركبته الأنثى، وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه، وإذا علم الذكَر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد، يقوم[[47]](#footnote-47) هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان، فيعملان منه أفحوصة[[48]](#footnote-48) وينسجانها نسجًا متداخلًا في الوضع الذي يكون بقدر جثمان الحمامة، ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة؛ لئلا يتدحرج عنها البيض، ويكون حصنًا للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويتعاقبان الأفحوص يسخِّنانه ويطيبانه وينفيان طباعه الأولى، ويحدثان فيه طبعًا آخر مشتقًّا ومستخرجًا من طباع أبدانهما ورائحتهما؛ لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة، ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تسقط من الفزع، فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه، انصدع عن الفرخ، فأعاناه على خروجه، فيبدأان أولًا بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته، علمًا منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتنفتق بعد ارتتاقها، ثم يعلمان أن الحويصلة وإن كانت قد اتسعت شيئًا فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم، ثم يعلمان أن طبع الحوصلة يضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية؛ لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو، ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج، بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط، منعاه بعض المنع؛ ليحتاج إلى اللقط ويعتاده، وإذا علما أن رئته قد[[49]](#footnote-49) قويت ونمت، وأنهما إن فطماه فطمًا تامًّا قوي على اللقط وتبلَّغ لنفسه، ضرباه إذا سألهما الزق ومنعاه، ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك العطف المتمكن حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب، ثم يبتدئان العمل ابتداءً على ذلك النظام.

والحمام يشاكل الناس في أكثر طباعه ومذاهبه؛ فإن من إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها، وفيه أخرى لا ترد يد لامس، وأخرى لا تنال إلا بعد الطلب الحثيث، وأخرى تركب من أول وهلة وأول طلب، وأخرى لها ذكَر معروف بها وهي تمكن ذكرًا آخر منها، إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها، وأخرى تمكن من يغنيها عن زوجها وهو يراهما ويشاهدهما، ولا تبالي بحضوره، وأخرى تغري[[50]](#footnote-50) الذكَر وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساحقها، وذكر يركب ذكرًا ويعسفه، وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام.

وفيها من لا تبيض، وإن باضت أفسدت البيضة، كالمرأة التي لا تريد الولد كيلا يشغلها عن شأنها، وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر أي ذكر كان، أسرعت هاربة، ولا تواتي غير زوجها ألبتة، بمنزلة المرأة الحرة، ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها ثم ينتقل عنها إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافق ذكرًا آخر عن زوجها وتنتقل عنه، وإن كانوا جميعًا في برج واحد، ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر، فتعايرهم كلهم، حتى إذا غلب واحد منهم رفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب، وفي الحديث: "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى رجلًا يتبع حمامة، فقال: ((شيطان يتبع شيطانة))"[[51]](#footnote-51)، ومنها: ما يزق فراخه خاصة، ومنها ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها.

ومن عجيب هداها: أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس؛ لئلا يعرض لها من يصدها، ولا ترِد مياههم، بل ترد المياه التي لا يردها الناس.

ومن هدايتها - أيضًا - أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده، وأي نوع من الأنواع ضده، فيخالف فعله ليسلم منه، ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل ويمر بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازي، وبين الغراب والصقر، فيعرف من يقصده ومن لا يقصده، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

ومن هداية الحمام: أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والرزق على الذكر، فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ[[52]](#footnote-52): أن رجلًا كان له زوج حمام مقصوص، وزوج طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشكَّ في موتهما؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان، قال: فلما خلى سبيلي لم يكن لي هم غيرهما، ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت، ووجدت المقصوص على أحسن حال، فعجبت، فما ألبث أن جاء الزوج الطيار فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ، فزقاهم، فانظر إلى هذه الهداية، فإن المقصوصين لما شاهدًا تلطف الفراخ للأبوين، وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش فَعَلا كفعل الفرخين، فأدركتهما رحمة الطيارين، فزقاهما كما يزقان فرخيهما.

ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ[[53]](#footnote-53) وغيره: قال الجاحظ - وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة -: أنه لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبقَ منهم أحد، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار، فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها فمصها، وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطبائها حبا إليها، فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت له ذلك، وأدام هو الطلب.

ولا يستبعد هذا، وما هو أعجب منه؛ فإن الذي هدى المولود إلى مص إبهامه ساعة يولد، ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم له به عادة، كأنه قد قيل له: هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفًا، وفي هدايتِه للحيوان إلى مصالحه ما هو أعجبُ من ذلك.

الديك:

ومن ذلك: أن الديك الشاب إذا لقي حَبًّا لم يأكله حتى يفرقه، فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق، كما قال المدائني، إن إياس بن معاوية: مر بديك ينقر حبًّا ولا يفرقه، فقال: ينبغي أن يكون هرمًا؛ فإن الديك الشاب يفرق الحب؛ ليجتمع الدجاج حوله فتصيب منه، والهرم قد فنيت رغبته، فليس له همة إلا نفسه.

قال إياس: والدِّيك يأخذ الحبة، فهو يريها الدجاجة حتى يلقيها من فيه، والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة.

وذكر ابن الأعرابي قال[[54]](#footnote-54): أكلت حية بيض مكَّاء، فجعل المكَّاء يصوت[[55]](#footnote-55) ويطير على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها [تريده] وهمت به، ألقى حسكة [فلم يزل يُلقي فيه حسكةً بعد حسكة]، فأخذت بحلقها حتى ماتت.

[وأنشد ابن الأعرابي عند هذا الحديث قول الشاعر:

كأنَّ لكل عند كل سخيمةً = يُرِيد بتخرِيق الأدِيم استلالَهَا)]

وأنشد أبو عمرو الشيباني في ذلك [بيت شعر، وهو هذا المعنى بعينه، وهو] قول الأسدي:

إن كنتَ أبصَرتني فذًّا ومُصطلمًا = فربما قَتَلَ المُكاءُ ثُعبانَا

[يقول: قد يظفر القليل بالكثير، والقليلُ الأعوانِ بالكثير الأعوان، والمُكاء من أصغر الطير وأضعَفِه، وقد احتال للثعبان حتى قتله].

الثعلب[[56]](#footnote-56):

ومن عجيب هدايتها: أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث، أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلًا، حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة فيلقيها في الماء ويخرج.

ومن عجيب أمره: أن ذئبًا أكل أولاده، وكان للذئب أولاد، وهناك زبية[[57]](#footnote-57)، فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها وحفر فيها سردابًا يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم، وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فَعلتُه، هرب قدامه وهو يتبعه، فألقى نفسه في الزبية، ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه، فلم يجده، ولم يُطِقِ الخروج، فقتله أهل الناحية.

ومن عجيب أمره: أن رجلًا كان معه دجاجتان، فاختفى له وخطف إحداهما، وفر، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى، فتراءى لصاحبها من بعيد، وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر، فظن الرجل أنها الدجاجة، فأسرع نحوها، وخالفه الثعلب فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره: أنه أتى إلى جزيرة فيها طير، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئًا فلم يطق، فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير، ففزع منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها، فعاد لذلك مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى توطنت الطير على ذلك وألِفَته، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك فدخل فيها، وعبر إلى الطير، فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله فلم تنفر منه، فوثب على طائر منها وعدا به.

ومن عجيب أمر الثعلب: أنه إذا أصاب القنفذ قلبه لظهره؛ لأجل شوكه، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك، فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه، ويأكل مسلوخه.

وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتتداوله الطير، فلا يظهر حركة ولا نفَسًا، فلا تشك أنه ميت، حتى إذا نقر بمنقاره وثب عليها فضمها ضمة الموت.

فسبحان من علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره، ويختلس نفَسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ، فيظن الظان أنه ميتة، فيقع عليه، فيثب على من انقضى عمره منها، ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم.

الذئب[[58]](#footnote-58):

ومن عجيب أمر الذئب: أنه عرض لإنسان يريد قتله، فرأى معه قوسًا وسهمًا، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه وعاين نفاد سهمه، فصادف من استعان به على طرد الذئب.

ومن عجيب أمره إذا نام: أن يجعل النوم نوبًا بين عينيه، فينام بإحداهما، حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة، حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مُقْلتيه ويتَّقي = بأخرى المنايا فَهْوَ يقظانُ نائم

القرد[[59]](#footnote-59):

ومن عجيب أمر القرد[[60]](#footnote-60): ما ذكره البخاري في صحيحه[[61]](#footnote-61)، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: (رأيت في الجاهلية قردًا وقردة زنيا[[62]](#footnote-62)، فاجتمع عليهما القرود، فرجموهما حتى ماتا)، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطَّله بنو آدم!

البقر[[63]](#footnote-63):

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (أن رجلاً بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها، فقالت: لم أُخلَق لهذا، فقال الناس: سبحان الله! بقرة تتكلم، فقال: فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثَمَّ، قال: وبينا رجل يرعى غنمًا له إذ عدا الذئب على شاة منها، فاستنقذها منه، فقال الذئب: هذه استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع؛ يوم لا راعي لها غيري؟! فقال الناس: سبحان الله! ذئب يتكلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثَمَّ))[[64]](#footnote-64).

الحمار[[65]](#footnote-65):

ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان: أن الرجل يسير به ويأتي به منزله من البُعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل، فإذا خلي جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به، والصوت الذي يحث به على السير.

الفأر[[66]](#footnote-66):

ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص وعز عليها الوصول إليه، ذهبت وحملت في أفواهها ماءً وصبته في الجرة؛ حتى يرتفع الزيت فتشربه.

طائر طويل المنقار:

والأطباء تزعم أن الحقنة[[67]](#footnote-67) أخذت من طائر طويل المنقار، إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرق بسرعة.

ابن عرس والقنفذ:

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات، عمَدَا إلى الصعتر النهري فأكلاه كالترياق لذلك.

الأسد:

ومن علَّم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب، عفا على أثر مشيته بذنَبه، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه فينفخ في منخريه؛ لأن اللبؤة تضعه جروًا كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها ألا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدنُ منها ولو جهده الجوع، ومن علم الأسد أن يخضع للببر ويذل له إذا اجتمعا حتى ينال منه سؤله[[68]](#footnote-68)، ومن عجيب أمره أنه إذا استعصى عليه شيء من السباع دعا الأسد فأجابه إجابة المملوك لمالكه، ثم أمره فربض بين يديه، فيبول في أذنيه، فإذا رأت السباع ذلك أذعنت له بالطاعة والخضوع.

الأنثى من السباع:

ومن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورًا تنفعه في معاشه وأخلاقه، وصناعته وحربه، وحزمه وصبره.

اليربوع[[69]](#footnote-69):

وهذا اليربوع لا يتخذ بيتًا إلا في موضع صلب؛ ليسلم من الحافر، ويكون مرتفعًا؛ ليسلم من السيل، ويكون عند أكمة أو صخرة؛ لئلا يضل عنه، ثم يجعل له أبوابًا، ويرقق بعضها، فلا ينفذه، فإذا أُتي من باب مفتوح دفع برأسه ما رق من التراب وخرج منه.

وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر حدِّث عنه ولا حرج.

وختامًا: فصدق - رحمه الله؛ فإن هذا باب واسع جدًّا، يكفي فيه ما ذكرنا، وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره ولطيف حكمته؛ فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل، وحسن التدبير والتأني لما تريده: ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل: أنه لم يخلق عبثًا، ولم يترك سدى، وأن له سبحانه في كل مخلوق: حكمة باهرة، وآية ظاهرة، وبرهانًا قاطعًا يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

تمت الرسالة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم من الأئمة الأعلام.

1. كنا ذكرنا في مقال لنا سبق - نشر على الشبكة المحبوبة شبكة الألوكة - بعنوان: [قواعد وفوائد من كتاب شفاء العليل لابن القيم](http://www.alukah.net/sharia/0/72607) - رحمه الله - شيئًا منها. [↑](#footnote-ref-1)
2. (143 - 162). [↑](#footnote-ref-2)
3. وهذا، أعني باب الهدى ويقابله الضلال، هو كما قال ابن القيم: "قلب أبواب القدر ومسائله"، شفاء العليل (ص: 141). [↑](#footnote-ref-3)
4. وهذا من الاستطراد التناسبي، الذي يضفي على المبحث كمالًا ووضوحًا، وفائدة ومتعة، وهو مما تميزت به مؤلفات ابن القيم، وفي نظري أنها أحد الأمور التي استطاع تحصيلها من شيخه ابن تيمية - رحم الله الجميع، وانظر للفائدة: كتاب العلامة بكر أبو زيد، ابن قيم الجوزية حياته وآثاره (ص: 61). [↑](#footnote-ref-4)
5. ويأتي ذكر أمور أخرى لاحقًا. [↑](#footnote-ref-5)
6. وأنا أقول: إن هذا الكتب من أحسن ما قرأت ورأيت فيما يتعلق بهذا الباب، بل لو قلت: إني لم أرَ مثله، لما أبعدت النجعة. [↑](#footnote-ref-6)
7. قال الشنقيطي: "{أَمْ} في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة، وأشهر معانيها: أنها جامعة بين معنى بل الإضرابية، واستفهام الإنكار معًا، والإضراب المدلول عليه بها هنا إضراب انتقالي، والمعنى: بل: {تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ} [الفرقان: 44]؛ أي: لا تعتقد ذلك ولا تظنه؛ فإنهم لا يسمعون الحق ولا يعقلونه؛ أي: لا يدركونه بعقولهم"، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (6/ 59). [↑](#footnote-ref-7)
8. قال ابن الجوزي: "في وجه تشبيههم بالأنعام قولان:

   أحدهما: أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول، والثاني: أنه ليس لها هم إلا المأكل والمشرب، "زاد المسير في علم التفسير (3/322)، وقال الرازي: "لم جعلوا أضل من الأنعام؟ الجواب من وجوه:

   أحدها: أن الأنعام تنقاد لأربابها وللذي يعلفها ويتعهدها، وتميز بين من يحسن إليها وبين من يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجتنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يميزون بين إحسانه إليهم وبين إساءة الشيطان إليهم، الذي هو عدو لهم، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع، ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار.

   وثانيها: أن قلوب الأنعام كما أنها تكون خالية عن العلم، فهي خالية عن الجهل، الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم، وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلَتْ عن العلم فقد اتصفت بالجهل؛ فإنهم لا يعلمون، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون، بل هم مصرُّون على أنهم يعلمون.

   وثالثها: أن عدم علم الأنعام لا يضر بأحد، أما جهل هؤلاء فإنه منشأ للضرر العظيم؛ لأنهم يصدون الناس عن سبيل الله، ويبغونها عوجًا.

   ورابعها: أن الأنعام لا تعرف شيئًا، ولكنهم عاجزون عن الطلب، وأما هؤلاء الجهال فإنهم ليسوا عاجزين عن الطلب، والمحروم عن طلب المراتب العالية إذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه، التارك له لسوء اختياره.

   وخامسها: أن البهائم لا تستحق عقابًا على عدم العلم، أما هؤلاء فإنهم يستحقون عليه أعظم العقاب.

   وسادسها: أن البهائم تسبِّح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: 44]، وقال: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ} [الحج: 18] إلى قوله: {وَالدَّوَابُّ} [الحج: 18]، وقال: {وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ} [النور: 41]، وإذا كان كذلك، فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الأنعام"، مفاتيح الغيب (24/463). [↑](#footnote-ref-8)
9. قال شيخ الإسلام: "فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو فهموا لم يعملوا، فنفى عنهم صحة القوة العلمية، وصحة القوة العملية"، الإيمان (ص: 27). [↑](#footnote-ref-9)
10. ما بين المعكوفين من إعلام الموقعين عن رب العالمين (1/188)، بتصرف وزيادة، وانظر - أيضًا - للفائدة: مدارج السالكين (2/410). [↑](#footnote-ref-10)
11. ما بين المعكوفين من مفتاح دار السعادة (1/53). [↑](#footnote-ref-11)
12. من هنا يبدأ كلام ابن القيم - رحمه الله - في شفاء العليل، ونذكر أن ذلك كما قلنا سابقًا بتصرف واختصار، وتقديم وتأخير، وترتيب وتنويع، وزيادة لا تخل - أبدًا - بالكلام. [↑](#footnote-ref-12)
13. ولذلك فهم أشقى الخلق؛ لأنهم وكما قال ابن القيم: "لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأسًا"، الوابل الصيب (ص: 72). [↑](#footnote-ref-13)
14. كذا عزاه هنا للباقر - رحمه الله - ولم يفعل في مفتاح دار السعادة (1/53)، ولم أجده، والباقر هو: محمد بن علي بن الحسين. [↑](#footnote-ref-14)
15. في الأصل: "أمها". [↑](#footnote-ref-15)
16. هذا زيادة مني، وتأتي مثيلاتها، وهي قليلة ولن أنبه عليها؛ لما سبق، ولظهور كلام العلامة ابن القيم - رحمه الله، فتنبه! [↑](#footnote-ref-16)
17. تقدم ذكر شيء منها. [↑](#footnote-ref-17)
18. شفاء العليل (ص: 143 - 147)، ط دار التراث. [↑](#footnote-ref-18)
19. وقع في نسختي: "الذكر"، ولعل الصواب ما أثبتناه، وهو ما يناسب السياق، والله أعلم. [↑](#footnote-ref-19)
20. وقع في نسختي: "فيجتني"، ولعل الصواب ما أثبتناه، وهو ما يناسب السياق، والله أعلم. [↑](#footnote-ref-20)
21. الثفل: بالضم ما سفل من كل شيء، تاج اللغة وصحاح العربية (5/332)، والثافل: ما استقر تحت الشيء من كدرة، القاموس المحيط (ص:1256). [↑](#footnote-ref-21)
22. إقليدس: كان أعلم أهل زمانه بالهندسة. [↑](#footnote-ref-22)
23. وقع في نسختي: "أعداؤها"، ولعل الصواب ما أثبتناه، وهو ما يناسب السياق، والله أعلم. [↑](#footnote-ref-23)
24. (ص: 147- 151). [↑](#footnote-ref-24)
25. قال ابن الجوزي: "وقد ألهم الله النمل كثيرًا من مصالحها تزيد به على الحيوانات، فمن ذلك أنها تكسر كل حبة تدخرها قطعتين؛ لئلا تَنْبُت، إلا الكُزْبرة؛ فإنها تكسرها أربع قطع؛ لأنها تَنْبُت إذا كُسرت قطعتين، فسبحان من ألهمها هذا!"، زاد المسير في علم التفسير (3/ 355). [↑](#footnote-ref-25)
26. وقال - أيضًا -: "أخبر الله سبحانه عن النمل أنه ركب فيه مثل هذا الشعور والنطق، ولا سيما هذه النملة التي جمعت في هذا الخطاب بين النداء والتعيين والتنبيه والتخصيص والأمر، وإضافة المساكن إلى أربابها، والتجائهم إلى مساكنهم، فلا يدخلون على غيرهم من الحيوانات مساكنهم، والتعذير والاعتذار بأوجز خطاب وأعذب لفظ؛ ولذلك حمل سليمانَ عليه السلام التعجبُ من قولها على التبسم"، اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 210 - 211). [↑](#footnote-ref-26)
27. وقع في نسختي: "عبدالله بن عبدالله بن عيينة"، والصواب ما أثبتناه، كما في كتب الحديث، وهو خطأ ظاهر، ومع هذا لم أر أحدًا ذكر هذا، والله أعلم. [↑](#footnote-ref-27)
28. الصرد: بضم ففتح طائر فوق العصفور، ضخم الرأس، أبيض البطن، أخضر الظهر، وأجاز مالك أكله، نيل الأوطار (8/200)، وقال الصنعاني: "وفيه دليل على تحريم قتل ما ذكر، ويؤخذ منه تحريم أكلها؛ لأنه لو حل لما نهى عن القتل". [↑](#footnote-ref-28)
29. أخرجه أبو داود رقم: (5269)، وابن ماجه رقم: (3224)، وأحمد (1/332)، قال النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم"، شرح مسلم (14/239)، وقال شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (8/142)، رقم: (2490). [↑](#footnote-ref-29)
30. أخرجه البخاري رقم: (3141)، ومسلم رقم: (2241). [↑](#footnote-ref-30)
31. الحيوان (4/18) لأبي عثمان الجاحظ. [↑](#footnote-ref-31)
32. في كتاب الحيوان: "جُحْرهن". [↑](#footnote-ref-32)
33. في كتاب الحيوان: "لنحرقن". [↑](#footnote-ref-33)
34. في كتاب الحيوان: "أو لنفعلن أو لنفعَلن". [↑](#footnote-ref-34)
35. انظر: الجزء الثاني من حديث يحيى بن معين، الفوائد (ص: 179)، وقال المحقق خالد بن عبدالله السبيت: "إسناده صحيح". [↑](#footnote-ref-35)
36. وقال في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص: 211): "وأحرى بهذه النملة - نملة سليمان عليه السلام - وأخواتها من النمل أن يكونوا أعرف بالله من الجهمية". [↑](#footnote-ref-36)
37. أخرجه أحمد في الزهد (ص: 87)، والدارقطني رقم: (188)، والحاكم (1/325-326)، وقال الحاكم: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، قال الألباني: وفي ذلك نظر عندي؛ فإن محمد بن عون، وأباه، لم أجد من ترجمهما، والغالب في مثلهما الجهالة، والله أعلم"، وله طرق كما قال ابن القيم، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (3/137). [↑](#footnote-ref-37)
38. شرح مشكل الآثار (2/331). [↑](#footnote-ref-38)
39. هو في الزهد (ص: 87) له، والحلية (3/101) لأبي نعيم، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (3/137) رقم: (670)، وانظر: اجتماع الجيوش الإسلامية (ص:211)، فقد ذكر روايات أخرَ. [↑](#footnote-ref-39)
40. لم أعرف من يريد بقوله هذا، اللهم إلا أن يكون قال: "حُدثت"، فتحرفت على بعضهم، والله أعلم. [↑](#footnote-ref-40)
41. لعله يعني شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، والله أعلم. [↑](#footnote-ref-41)
42. (ص: 151- 152). [↑](#footnote-ref-42)
43. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (3/362)، والزيادة بين المعقوفتين منه. [↑](#footnote-ref-43)
44. (ص: 152 - 156). [↑](#footnote-ref-44)
45. لم أجده، وقد ذكره الثعالبي في تفسيره (3/157)، والقرطبي (13/176). [↑](#footnote-ref-45)
46. الفرسخ: واحد الفراسخ، فارسي معرب، وهو ثلاثة أميال، وسمي بذلك؛ لأن صاحبه إذا مشى قعد واستراح من ذلك، كأنه سكن، انظر: لسان العرب (3/44)، وتاج اللغة وصحاح العربية (2/450)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (1/293) وغيرها. [↑](#footnote-ref-46)
47. في الأصل: يقدم! [↑](#footnote-ref-47)
48. وقال في بدائع الفوائد (3/746): "وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت، أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع". [↑](#footnote-ref-48)
49. في الأصل: في! [↑](#footnote-ref-49)
50. في الأصل: "تعمط". [↑](#footnote-ref-50)
51. أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم: (1300)، وأحمد (2/345)، وأبو داود رقم: (4942)، وابن ماجه رقم: (3755)، عن أبي هريرة - رضي الله عنه، وجوَّده ابن القيم في الزاد (4/348)، وقال في المنار المنيف (ص: 107): "وأرفع شيء جاء فيها.."، ثم ذكره، وحسنه شعيب الأرناؤوط، وصححه الألباني، وانظر في حكم اللعب بالحمام مجموع الفتاوى (32/246)، والطرق الحكمية (ص:409). [↑](#footnote-ref-51)
52. الحيوان (2/156)، عن بابويه. [↑](#footnote-ref-52)
53. الحيوان (2/155). [↑](#footnote-ref-53)
54. الحيوان (7/23)، وما بين المعكوفات منه. [↑](#footnote-ref-54)
55. في كتاب الحيوان: "يشرشر على رأسها". [↑](#footnote-ref-55)
56. (ص: 156). [↑](#footnote-ref-56)
57. الحفرة التي تحفر للسبع، ولا تحفر إلا في مكان عالٍ من الأرض؛ لئلا يبلغها السيل فتنطم، النهاية (2/712) وغيره. [↑](#footnote-ref-57)
58. (ص: 157). [↑](#footnote-ref-58)
59. (ص: 157). [↑](#footnote-ref-59)
60. قال شيخ الإسلام: "ومثل ذلك قد شاهده الناس في زماننا في غير القرود، حتى الطيور"، مجموع الفتاوى (11/545)، وقال في (15/147): "وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين: أنه رأى في جامع نوعًا من الطير قد باض، فأخذ الناس بيضة، وجاء ببيض جنس آخر من الطير، فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير الجنس، فجعل الذكر يطلب جنسه، حتى اجتمع منهن عدد، فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها، ومثل هذا معروفٌ في عادة البهائم". [↑](#footnote-ref-60)
61. أخرجه البخاري رقم: (3636)، ولفظه: عن عمرو بن ميمون، قال: "رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة، قد زنت، فرجموها، فرجمتها معهم"، وقد عزاه شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (15/147): لأبي رجاء العطاردي! [↑](#footnote-ref-61)
62. قال ابن القيم: "ويكفي في قبح الزنا: أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات، وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهَد عباده المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه: أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له"، ثم ذكر هذه القصة، روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:359)، وانظر للفائدة: الجواب الكافي (ص: 105). [↑](#footnote-ref-62)
63. (ص: 157). [↑](#footnote-ref-63)
64. أخرجه البخاري رقم: (3284)، وغيره. [↑](#footnote-ref-64)
65. (ص: 157). [↑](#footnote-ref-65)
66. (ص: 157). [↑](#footnote-ref-66)
67. قال الجوهري: الحقنة ما يحقن به المريض من الدواء. [↑](#footnote-ref-67)
68. في الأصل: "منه له". [↑](#footnote-ref-68)
69. هذا من بدائع الفوائد (3/745). [↑](#footnote-ref-69)